اللغة العربية

قضايا مشترك بين الرفض والقبول

طالب: محمد صالح علي صالح
كلية الآداب - جامعة عدن

الملخص

للغة العربية ثراؤها من حيث وفرة مفرداتها، وتعدّد دلالاتها، حيث تتميز بوجود ألفاظ كثيرة للمعنى الواحد، وألفاظ أخرى تحمل معاني متعددة. وقد أحسن العرب توظيف هذا الغنى اللغوي واعتزّوا به، حتى جعلوه مظهر تفوّقهم البياني. كما يناقش النص العلاقة الجدلية بين اللفظ والمعنى، إذ يرتبط كلّ منهما بالآخر ويتأثر به، وقد يتعدد أحدهما أو يتفرّد، مما يثري الدلالة ويُكسبها أبعادًا مجازية وسياقية. ويرجع هذا التعدد إلى عوامل عدة، أبرزها الاستعمال الذي يُبقي بعض الألفاظ ويُهمِل أخرى. وقد اختلفت الآراء حول هذه الظاهرة بين مؤيد يعدّها دليل ثراء، ومعارض يراها طارئة، وآخرين يرون وجود فروق دقيقة بين المعاني. وفي النهاية، يظلّ الاستعمال هو العامل الحاسم في بقاء الألفاظ والمعاني وتداولها.

Abstract

Arabic is a rich language in vocabulary and meaning, marked by multiple words for a single concept and single words with multiple meanings. Arabs took pride in this richness and used it as a sign of eloquence. The text highlights the close relationship between word and meaning, which enhances expression through context and figurative use. This diversity stems mainly from usage, which preserves some words and lets others fade. Scholars differ in interpreting this phenomenon, but usage ultimately determines which words and meanings endure.

المقدِّمة:

لم تحظَ لغةٌ في الدُّنا بما حظيت به اللغة العربيّة من تشريف وغنًى. فأمّا التشريف فلأنّ الله قد خصّها بذلك؛ إذ جعلها لغة التنزيل الكريم. وأمّا الغنى فلِسعة معجمها، ولتنوّع مناهلها، وجمال تراكيبها، فلا تكاد تُمسك بمعنىً للفظة فيها حتى تجود عليك بوفرة بمعان أُخَر تشترك مع معناها الأوّل، أو ترادفه، أو ربّما تختلف معه فتكون ضدّه.

ولعلّ هذا الغنى هو ما دفع علماء العربيّة السابقين، والمحدثين إلى أن ينهلوا من ينابيعها، فصار لديهم ذلك الثراء الفكريّ، واللغويّ؛ وهو الأمر الذي جعلهم يخوضون في كلّ جزئيّة فيها؛ حبًّا وتعلُّقًا من ناحية، وغيرةً ودفاعًا عنها من سهام المغرضين الحاقدين عليها من ناحية أخرى.

ذلكما الحبّ والغيرة ربّما كانا سببًا من أسباب الخلاف الذي ظهر في قضايا دلاليّة رآها البعض سمة من سمات اللغة العربيّة، وعلامة على حيويّتها، في حين رآه آخرون شيئًا لا ينبغي أن تُوسم به اللغة العربيّة، فتأوّلوه، وأعملوا فكرهم في تفسير حدوثه.

من أبرز القضايا التي شغلت علماءَ العربيّة قديمًا وحديثًا، قضايا الاشتراك اللفظيّ، ويُقصد به ما تحويه من مشترك، وترادف، وتضادّ. فمنهم من أيّدها، وناصرها؛ فألّف فيها ما يجلّيها، ويعدّد طرقها، ومراميها، ومنهم من أنكرها فألّف ما ينقض فيه ادّعاء الآخرين.

والحقيقة أنّ جلّ علماء العربيّة يقولون بوقوع الاشتراك، والقِلّة هم المنكرون، فهذا حِبر العربيّة قد رمى فيها بسهم، ومن قبله شيخه، وشيخ العربيّة بلا منازع الخليل بن أحمد. ففي الكتاب يشير سيبويه إلى قضيّة الاشتراك بوضوح؛ إذ يقول: "اعلم أنّ من كلامِهم اختلافَ اللفظينِ لاختلاف المعنيينِ، واختلافَ اللفظينِ والمعنى واحدٌ، واتفاق اللفظين واختلاف المعنيين...فاختلافُ اللفظين لاختلاف المعنيين هو نحو: جلسَ وذهبَ. واختلاف اللفظين والمعنى واحدٌ نحو: ذهبَ وانطلقَ. واتفاق اللفظين والمعنى مختلِف قولك: وجَدتُ عليه من المَوْجِدة، ووجَدت إذا أردت وجِدان الضّالَّة، وأشباه هذا كثيرٌ"[1].

[1] - الكتاب لسيبويه 24/1.

فالأصل في اللفظة أن تأتي لمعنًى واحد، والخروج عن هذا الأصل هو الاشتراك. فإن اختلف اللفظان واختلف معناهما فهو التباين، نحو: رجل، وامرأة، وسحاب، وكتاب، وغير ذلك من الألفاظ المتباينة لفظًا ومعنًى. وإن اختلف اللفظان والمعنى واحد فهو الترادف، نحو: ريب وشكّ، وعِير وحمار، وظننت وحسبت، وما أشبه ذلك. وإن اتفق اللفظان واختلف معناهما، فهو المشترك اللفظيّ، نحو: عين الماء، وعين المال، والعين الباصرة، ونحو: ضربت زيدًا، وضربت مثلًا. وإن دلّ اللفظ الواحد على معنيين متضادّين فهو التضادّ، نحو: جلل: للأمر العظيم، واليسير، والجون: للأسود، والأبيض.

ويمكن أخذ تلك القضايا الدلاليّة منفردةً على النحو الآتي:

أولًا: الترادف:

جاء في لسان العرب: "الرِّدف: ما تبع الشيء، وكلّ شيء تبع شيئا فهو ردفه. وإذا تتابع شيء خلف شيء فهو الترادف"[1].

فالترادف أن تتعاور لفظتان في المعنى نفسَه؛ وذلك نحو: الرَّيْب، والشكّ، ونحو: النأي، والبُعد، ونحو: قعد، وجلس، ونحو: قام، ووقف. وقد يأتي الترادف بأكثر من لفظتين نحو: السيف، والمهنّد، والحسام، ونحو: الأسد، والهزبر، والضرغام، وكذا: مضى، وانطلق، وذهب. وغير ذلك كثير.

وقد شاعت ظاهرة الترادف إلى الحدّ الذي دفع بعضًا من علماء اللغة العربيّة للتفاخر بحفظ كثير من تلك الألفاظ المترادفة. فقد روى ابن فارس في كتابه الصاحبيّ أنّ هارون الرشيد سأل الأصمعيَّ عن شعر لابن حزام العكليّ، ففسّره، فقال: يا أصمعيّ، إنّ الغريب عندك لغير غريب. فقال: يا أمير المؤمنين ألا أكون كذلك وقد حفظت للحجر سبعين اسمًا.[2] ويروى عن ابن خالويه أنّه جمع للأسد خمسمائة اسم، وللحيّة مائتين.[3] وكذا يذكر السيوطيّ أنّه جمع للعسل ثمانين اسمًا.[4] منها: العسل، والضَّرْب، والضَّرَبة، والضَّريب، والشُّؤب، والحَميت، والتَّحموت، إلى آخر تلك المسمّيات[5].

[1] - لسان العرب مادّة (ر. د. ف) 114/9.
[2] - الصاحبيّ: 22.
[3] - نفسه.
[4] - المزهر: 1/ 320.
[5] - يُنظر: المصدر نفسه.

ويرى بعضٌ من المنكرين للترادف أنّ تلك الأسماء في المترادفات الأصل فيها أنّ الاسم واحد وباقيها صفات. فنحو قولهم: السيف، والمهنّد، والحسام، فالأصل فيها عندهم للسيف، وباقي الأسماء صفات له، ومعناها غير معنى الأخرى[1].

فهؤلاء قصَـــروا الترادف على ما تطابق فيه المعنيان تطابقًا تامّا من دون أدنى تفاوت، ومنهم فخر الدين الرّازي الذي يؤكّد أنّ في الصارم زيادة في المعنى ليست في السيف. وَمِنْهُم الأصفهانيّ الذي كَانَ يرى أَنّ الترادف الحقيقيّ هُوَ مَا يُوجد فِي اللهجة الْوَاحِدَة أما مَا كَانَ من لهجتين فَلَيْسَ من الترادف[2].

وأشهر من تصدّى للردّ على القائلين بالترادف أبوعليّ الفارسيّ؛ إذ يعلّله بتوارد الصفات بسبب تلك الفروق اللغويّة بينها، فقد روى السيوطيّ عن أبي علي الفارسيّ قوله: "كنتُ بمجلس سيف الدولة بحلَب وبالحضرة جماعة من أهل اللغة وفيهم ابن خالويه، فقال ابن خالويه: أحفظ للسيفِ خمسين اسمًا فتبسّم أبو علي وقال: ما أحفظ له إلا اسمًا واحدًا، وهو السيف. قال ابن خالويه: فأين المُهَنَّد، والصَّارِم، وكذا، وكذا؟ فقال أبو علي: هذه صفات، وكأنّ الشيخ لا يفرّقُ بين الاسْمِ والصِّفة"[3].

فابن فارس يرُدّ توارد تلك المترادفات إلى وجود فروق لغويّة دقيقة بين لفظة وأخرى، ورؤيته تلك لا تقتصر على الأسماء بل تتعدّاها إلى الأفعال أيضًا، فالأفعال مثل: مضى، وذهب، وانطلق، وكذا قعد، وجلس، يملك كلّ منها معنًى ليس في الآخر ففِي "قعد معنًى ليس فِي جلس. ألا ترى أَنَّا نقول "قام ثُمَّ قعد"... ثُمَّ نقول: "كَانَ مضـــطجعًا فجلس" فيكون القعود عن قيام والجلوس عن حالة هي دون الجلوس لأنّ "الجَلْسَ: المرتفع" فالجلوس ارتفاع عما هو دونه. وَعَلَى هَذَا يجري الباب كلُّه"[4].

[1] - ينظر: الصاحبيّ: 59.
[2] - المصدر نفسه: 17.
[3] - المزهر: 1/ 318.
[4] - الصاحبيّ: 60.

والقائلون بالترادف يؤكّدونه بقولهم: إنّه لو كان المعنى كذلك على الدوام ما صحّ أن يُعطف الشكّ على الرَّيْب، أو أن يُفسَّر به. ولا يصحّ أن يعطف النأي على البُعد في قول الشاعر:

"وهند أتى من دونها النأيُ والبعدُ"[1].

وذلك لاختلاف المعنى حسب وجهة النظر السابقة؛ إذ يكون حينها من قبيل تأكيد الشيء بما هو مغاير له.

ويردّ ابن فارس على ذلك بقوله: "وأمّا قولهم: إنّ المعنيين لو اختلفا لما جاز أن يُعَبَّر عن الشيء بالشيء. فإنّا نقول: إنّما عُبّر عنه من طريق المشاكلة، ولسنا نقول إن اللفظتين مختلفتان، فيلزمنا مَا قالوه. وإنّما نقول إنّ فِي كلّ واحدة منهما معنًى ليس في الأخرى"[2].

وإنكار الترادف جملة وتفصيلاً فيه إجحاف بحقّ اللغة، فحتّى مع التسليم بوجود اختلافات في المعنى تدقّ حينًا، وتظهر حينًا، لكنّ ذلك لا يمنع من وجود كلمات يظهر فيها الترادف، فلعلّ حمل كلام ابن فارس ومن منع الترادف على "منعه في لغة واحدة، فأمّا في لغتين فلا ينكره عاقل"[3].

وأشهر من قال بتلك الفروق أبو هلال العسكريّ، الذي ألّف كتابًا أسماه "الفروق اللغويّة"، ففيه يذكر أنّ "كلّ اسمين يجريان على معنًى من المعاني، وعين من الأعيان، في لغة واحدة؛ فإنّ كلّ واحد منهما يقتضي خلاف ما يقتضيه الآخر، وإلا لكان الثاني فضلا لا يُحتاج إليه"[4].

لذلك نجده يتلمّس تلك الفروق الدقيقة بين لفظة وأخرى؛ مما ينمّ عن سعة وغزارة باللغة العربيّة مكّنته من معرفة ما ترمي كلّ لفظة من معنًى مع ما في الكتاب من تكلّف في طلب المعنى أحيانًا. فهو يفرّق بين السؤال والاستفهام، وبين الدعاء والنداء، وبين الإعادة والتكرار،

---

[1] - هو عجز بيت للحطيئة، وتتمته:
ألا حبذا هندٌ وأرضٌ بها هندُ وهندٌ أتى من دونها النأيُ والبُعدُ
ديوان الحطيئة: 39.

[2] - الصاحبيّ: 60.

[3] - المزهر:1/ 319.

[4] - الفروق اللغويّة: 12.

وبين الاختصـــار والإيجاز، وبين الإســـهاب والإطناب، وبين الكذب والإفك، وبين الإقرار والاعتراف.. إلى آخر تلك الفروق التي امتلأ بها كتابُه[1]. فمن تفريقه بين الإقرار والاعتراف قوله: "الإقرار مثل الاعتراف إلا أنّه يقتضـــي تعريف صـــاحبه الغيرَ أنّه قد التزم ما اعترف به، وأصـــله المعرفة، وأصـــل الإقرار من التقرير، وهو تحصـــيل مالم يصـــرّح به القول، ولهذا اختار أصـــحاب الشـــروط "أقرّ به" ولم يختاروا "اعترف به""[2].

وقد تجدّد الخلاف بين إثبات وإنكار عند أصـــــحاب النظريات اللســـــانيّة المختلفة، فأكثر اللغويين والـدلاليّين يرون "أنّ الترادف الحقيقيّ والكـامـل في بيئـة واحـدة، أو لغـة واحـدة، أو زمن واحـد غير موجود"[3].

ويعزِو الدكتور صبحي الصالح كثرة المترادفات في لغتنا العربيّة، وحدوث هذا الثراء الكبير في ألفاظها إلى "أنّ المهجور من ألفاظها كُتب له البقاء، فإلى جانب الكلمات المُســـتعملَة كان مدوّنو المعجمات يسـجّلون الكلمات المهجورة. وما هُجر في زمان معيّن كان قبلُ مسـتعملًا في عصـر من العصـور، أو كان لهجة لقبيلة خاصّـــة انقرضـــت أو غلبتها لهجة أقوى منها، وهجران اللفظ ليس كافيًا لإماتته؛ لأنّ من الممكن إحياءه بتجديد استعماله"[4].

وهذا الاستعمال هو ما أشار إليه فندريس في كتابه اللغة؛ إذ يؤكّد أنّ الكلمة لها "من المعاني مالها من الاستعمالات، ولكنّ كلّ معنى فيها مستقلّ عن المعاني الأخرى، إذ إنّه لا يكون في ذهننا عند استعمال الكلمة إلا معنًى واحد"[5].

والســـياق العامّ هو الذي يحدّد ذلك الاســـتعمال في مدلولات مختلفة فاختلاف "الســـياقات من اســـتعمال إلى اســـتعمال، هو الذي جعل للدالّ الواحد أكثر من مدلول، وللمدلول أكثر من دالّ، ولهذا السبب كانت الدلالة خاضعة لجدليّة الاستعمال"[6].

[1] - ينظر: نفسه: ص 39، 41، 42، 43، 44، 52، 75.
[2] - نفسه: 58.
[3] - القضايا الدلالية في أصول الفقه: 47.
[4] - دراسات في فقه اللغة: 293.
[5] - اللغة لفندريس: 242.
[6] - السياق وأثره في فهم المعنى: 22.

وللغتنا العربيّة ميزة في استعمال ألفاظها، كما يراها الدكتور صبحي الصالح فهي على نوعين: "مهجور قد يُستعمَل، ومُستعمَل قد يُهجر، واحتفاظ علمائنا بالنوع الأوّل كأنّه إرهاص لإحيائه، وفي هذا كانت المزيّة للعربيّة؛ إذ لا تحتفظ سائر اللغات إلا بالنوع الثاني وهو مهدّد بالهجران، معرّض لقوانين التغيّر الصوتيّ، فإذا أُميت بالهجر لم يكن في طبائعها ما تعوّض به المهجور الجديد بمهجور قديم، فتضطر إلى الاستجداء من لغات أخرى وأحيانًا إلى غصبها والسرقة منها"[1].

وما يجعلنا نفضّل لفظة، ونؤثر استخدامها دون غيرها، أو أن نفضّلها على لفظة أخرى تشترك معها في معناها العامّ هو ذلك السياق الذي قد ترد فيه؛ إذ عليه "استند بعض البلاغيين في التفريق بين الألفاظ التي تبدو مترادفة، وذلك حسب الموقف الذي يفرض على مستعمل اللغة اعتبار هذه الكلمة دون تلك؛ لأنّها تتناسب وغرضه"[2]

وعليه؛ فإنّ تلك الألفاظ في لغتنا العربيّة بما تحويه من ترادفات شتّى تظلّ زاخرة معطاءة وإن قلّ استعمالها؛ فهي تجود على من التمسها بمعين لا ينضَب من المعاني.

من أسباب حدوث الترادف:

1- كثرة الأسماء للشيء الواحد في لهجات العرب المختلفة ثمّ شيوعه نتيجة الاحتكاك بين قبائل العرب ومن ثمّ التصاقها في اللغة الأم بوصفها مترادفات يدلّ بعضها على بعض.

2- أن يكون للاسم عدّة صفات، ثمّ انتقال تلك الصفات مع كثرة الاستعمال إلى الاسميّة، وتناسي الصفة، ومثال ذلك كثير، فأكثر ما ذُكر في السيف هي صفات له ثمّ انتقلت دلالاتها مع كثرة استعمالاتها إلى السيف نفسه.

3- دخول كلمات من لُغات أخرى غير عربيّة، ثم يشيع استعمالها بعد تعريبها، نحو كلمة: استبرق، ونمارق، وجُمان.

4- التطور اللغويّ أو الصوتيّ في بعض الألفاظ؛ فتنشأ صور مشابهة للفظة مع اختلاف حرف فيها نحو قولهم: حُثالة، وحُفالة، وفوم، وثوم، ولثام، ولفام. ويقال: الأثافي والأثاثي، وهي لغة لبعض بني تميم[3]. وكذا قولهم في الصقر، الزقر، والسقر.

[1] - دراسات في فقه اللغة: 293.

[2] - السياق وأثره في فهم المعنى: 221.

[3] - القلب والإبدال لابن السكّيت: 11.

5- قد يحصل الترادف نتيجة التشبيه أو المجاز، فقد تُستخدم لفظة مجازًا، ثم يحسن استخدامها عند كثير من الناس وخاصّة الشعراء منهم، فقد شبّهوا المرأة بالبيضة لصفائها، والريم لرشاقتها، وببقر الوحش لسعة عينيها، وأطلقوا على النساء لفظ الظعائن وهو جمع ظعن وهو الهودج تكون النساء بداخله عند السفر، ثم صار يطلق على النساء كافّة، وكذا لفظ القوارير، ومثله إطلاق الكبش على القائد من العرب، والعلج على القائد من غيرهم.

ثانيًا: المشترك اللفظيّ:

وأفضل تعريف له هو ما جاء عن أهل الأصول بأنّه "اللفظُ الواحدُ الدالُّ على معنيين مختلفين فأكثر، دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة"[1]. ومثاله: لفظة العين؛ إذ يقال: عين الماء، وعين المال، وعين الإنسان، أو الحيوان، وعين الشيء: أي حقيقته، وعين النفس؛ يقال: عان زيد عمرا؛ أي: أصابه بالعين، وكذا عين الجيش، وهو ما يُعرَف حاليًا بالاستطلاع. وروى السيوطيّ عن ابن خالويه أنّ العين تنقسم ثلاثين قسمًا[2]. ومثاله في الفعل قولك: ضربت زيدا، وضربت مثلًا. وكذا قولك: وجدت شيئًا، من وجدان الضالّة، ووجدت على الرجل من الموجدة، وهي الغضب، ووجدت زيدًا كريمًا، بمعنى علمت.

وما قيل في الترادف قيل في المشترك اللفظيّ، فقد كثر حوله الخلاف كذلك بين مؤيّد ومنكر. ومن أشهر المنكرين له ابن درستويه الذي يرى أنّ تعدّد المعنى في المشترك مردّه إلى أصل واحد، ويمثّل لذلك لفظة "وجد" فمعانيها عنده "كلها شيء واحد، وهو إصابة الشيء خيرًا كان أو شرًّا، ولكن فرّقوا بين المصادر؛ لأنّ المفعولات كانت مختلفة، فجعل الفرق في المصادر بأنّها أيضًا مفعولة، والمصادر كثيرة التصاريف جدًّا، وأمثلتها كثيرة مختلفة، وقياسها غامض، وعِللها خفيّة، والمفتّشون عنها قليلون، والصبر عليها معدوم، فلذلك توهّم أهل اللغة أنّها تأتي على غير قياس؛ لأنّهم لم يضبطوا قياسها، ولم يقفوا على غورها"[3].

فكما يتسع التعبير في العربيّة عن طريق الترادف -سواء أبولغ فيه فكان للمسمّى الواحد ألوف من الأسماء، أم اقتصر منه على الأمور المهمّة والتمست الفروق في سائره- لا بدّ أن

[1] - المزهر: 1/ 292.
[2] - المصدر نفسه: 1/ 295.
[3] - المصدر السابق: 1/ 303.

يتسع التعبير عن طريق الاشتراك، سواء أسُلِّم وروده على سبيل الحقيقة، أم التُمست له معانٍ متطورة على سبيل المجاز.

ويبدو أنّ تداخل اللهجات كان له أثره كذلك في المشترك كما هو في المترادفات، فمن المشترك الذي حدث باختلاف الواضعين لفظة "الأَلَفت" فهي بمعنى الأعسر عند تميم، وبمعنى الأحمق عند قيس. وكذلك لفظة "السليط" فهي بمعنى الزيت عند عامّة العرب، وهي خاصّة بدهن السمسم عند أهل اليمن[1].

وكثير من الألفاظ في المشترك اللفظي مردّها الحقيقيّ التوسّع في المعني على سبيل المجاز نتيجة التطور في استعمال الألفاظ. فقد أتاحت كثرة الاشتراك في الألفاظ العربيّة، وفرة لغويّة تسمح لمحبّي التورية والتجنيس، بإطلاق لفظ للدلالة على معنًى لا يقصده، في حين يخفي المعنى الآخر المقصودُ وقد يكون الواضع لها بقصد التعمية مثلًا، أو الإبهام، وهنا يكون المعنى الظاهر مجازيّ؛ والمخفيّ هو الحقيقيّ؛ إذ قد يكون "التصريح سببًا للمَفْسدة، كما رُوي عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه – وقد سأله رجلٌ عن النبيّ –صلى الله عليه وسلّم– وقت ذهابهما إلى الغار: من هذا؟ قال: هذا رجلٌ يَهْديني السبيلَ"[2].

وقد صار الأمر إلى التفاخر بين اللغويّين من أصحاب القريض، في الإتيان بقواف تستوي ألفاظها، وتختلف معانيها. ومن ذلك قول أحدهم يعدّد معاني لفظة الغروب[3]:

يا ويحَ قلبي من دَوَاعي الهَوى إذْ رَحَل الجيرانُ عند الغُروبْ
أتبعتُهم طَرْفي وقد أَزْمَعُوا ودمعُ عينيَّ كفَيْضِ الغُروبْ
كانُواْ وفيهم طَفْلة حَرَّة تفترّ عن مِثْل أقاحي الغُرُوبْ

فالغُرُوب الأوّل: غُروب الشمس والثاني جمع غَرْب: وهو الدَّلْو العظيمة المملوءة والثالث جمع غرب: وهي الوِهَاد المنخفضة[4]. وأورد السيوطيّ أيضًا قول آخر معدّدًا معاني لفظة (جَلْس):

لقد رأيت هذريّا جَلْسا يقود من بطن قديد جَلْسا
ثم رقى من بعد ذاك جَلْسا يشرب فيه لبنًا وجَلْسا
مع رفْقَةٍ لا يشربون جَلْسا ولا يؤمّون لهمْ جَلْسا

[1] - ينظر: المصدر نفسه: 301/1.
[2] - المصدر نفسه: 1/ 292.
[3] - نسبها السيوطيّ للخليل: المزهر: 1/ 297-298.
[4] - ينظر: المصدرالسابق.

فجَلْس الأول: رجل طويل، والثاني: جَبَل عال، والثالث: جبل، والرابع عسل، والخامس: خمر، والسادس: نجد[1].

ومن غريب لفظ المشترك ما أورده السيوطيّ في لفظة "كذب" بمعنى (عليكم) في قول خداش بن زهير العامري:

كذبت عليكم أوعدوني وعلّلوا بي الأرض والأقوام قِرْدَان مَوْظبًا

قيل: إنّ معنى كذبت عليكم: أي عليكم بي. وقد جاء عن عمر – رضي الله عنه– قوله: (كَذَب عليكم الحجُّ)، والمعنى عليكم الحجّ أي: حجّوا[2].

ولعلّ ذلك عائد إلى تعاقب صوتيّ بين صوتي التاء والذال، ونظير ذلك في اللغة ما جاء في لفظة "فروة" فهي في المعجمات بمعنى "جلدة الرأس، والغِنى، وأصل الكلمة بالمعنى الثاني هو الثروة، أُبدلت الثاء فاء على طريقة العربيّة في مثل: "جدث" و"جَدَف" و"حُثالة" و"حُفالة"[3]. ومثاله أيضًا قولهم: ثوم وفوم، ولثام ولفام.

ومن غريب المشترك كذلك إطلاقهم لفظة "خال" على أخي الأم، والمكان الفارغ، والشامة في الوجه. وأغرب من ذلك إطلاقهم لفظة "الأرض" على الأرض المعروفة، وهي كذلك بمعنى الزكام. فقد وردت بالمعنيين في معجم مختار الصحاح؛ إذ يقول فيها بأنّها الأرض المعروفة، وهي "أيضًا النُّفْضَةُ وَالرِّعْدَةُ. قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ –رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ– وَقَدْ زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ: أَزُلْزِلَتِ الْأَرْضُ أَمْ بِي أَرْضٌ؟ وَ(الْأَرَضَةُ) بِفَتْحَتَيْنِ دُوَيْبَّةٌ تَأْكُلُ الْخَشَبَ يُقَالُ: (أُرِضَتِ) الْخَشَبَةُ عَلَى مَا لَمْ يُسَمَّ فَاعِلُهُ تُؤْرَضُ أَرْضًا بِالتَّسْكِينِ فَهِيَ (مَأْرُوضَةٌ) إِذَا أَكَلَتْهَا الْأَرَضَةُ"[4].

ومن غريب المشترك أيضًا ما رُوي "أنّ زيدًا بن عبد الله بن دارِم وفد عَلَى بعض ملوك حِمْيَر، فألْفاه فِي مُتَصَيَّد لَهُ عَلَى جبل مُشْرِف، فسلّم عَلَيْهِ وانتسب له، فقال لَهُ الملك "ثَب"؛ أي اجلس، وظنّ الرجل أنّه أمره بالوثوب من الجبل، فقال: "لتجدني أَيُّها الملك مِطْواعًا"، ثُمَّ وثب من الجبل فهلك، فقال الملك: مَا شأنه؟ فخبّروه قصّته وغلطه فِي الكلمة، فقال: "أما إنّه ليست عندنا عربيّة، من دخل ظَفارِ حَمّر"[5].

[1] - ينظر: المصدر نفسه.
[2] - ينظر: المصدر نفسه: 1/ 301.
[3] - فصول في فقه اللغة: 332.
[4] - مختار الصحاح: 19/ 17.
[5] - الصاحبي: 27.

ومن طريف الاشتراك ما روي عن أبي العلاء المعرّي من أنّه دخل على المرتضي، فعثر برجُل، فقال الرجل: من هذا الكلب؟ فردّ أبو العلاء المعرّي: الكلب من لا يعرف للكلب سبعين اسمًا. وهو الأمر الذي دفع بالسيوطيّ أن يُحصي تلك الأسماء السبعين للكلب وينظمها في منظومة أسماها (التبرّي من معرّة المعرّي)[1]؛ أي إنّ السيوطيّ نظم منظومته التي أحصى فيها الأسماء السبعين للكلب تحرّجا من أن تلحقه وصمة المعرّي تلك.

أسباب نشوء المشترك:

1- يعدّ المجاز أحد العوامل الرئيسة في نشوء المشترك؛ إذ إنّ كثيرًا من الكلمات المتشابهة اللفظ كانت وليدة انتقال الدلالة من الاستعمال المجازي نحو كلمة (عين) فهي للعين الباصرة، وتُطلق على الجاسوس، أو على طليعة القوم (الاستطلاع) مجازًا.

وقد أدّى المجاز وظيفته في نشوء المشترك في اللغات الأجنبيّة كذلك[2]، فقد نقل رمضان عبد التواب عن أولمان أنّ لفظة (crane) التي تُطلق على آلة رفع الأثقال قد أُخذت مجازًا تشبيها بطائر الكركيّ[3].

2- اختلاف اللهجات بين العرب؛ إذ قد يطلق لفظ عند قبيلة بمعنًى وتطلقه أخرى على معنًى آخر، ومن ذلك لفظة "الألفت" فهي عند قبيلة قيس بمعنى الأحمق، وعند قبيلة تميم بمعنى الأعسر وهو الذي يعمل بيده اليسرى، ونسمّيه بلهجتنا الدارجة "الأشبط". ومنه لفظ "السليط"؛ إذ يطلق على الزيت عند العرب، وهو عند أهل اليمن خاصّ بدهن السمسم. ومازالت اللفظة تطلق إلى اليوم عند أهل اليمن، ولكن من دون تخصيص لها؛ إذ تطلق على أيّ زيت.

3- التطوّر اللغويّ؛ فقد يحصل تغيّر صوتيّ في بعض اللفظ يؤدي إلى أن تشبه اللفظة لفظة أخرى بسبب ذلك التغيّر، ومثله لفظة "الفروة" تُستعمل لجلدة الرأس وللغنى، فاستخدامها للغنى أصله "ثروة" أبدلت الثاء فاء.

جاء في لسان العرب: "والفروة كالثروة في بعض اللغات، وهو الغِنى، وزعم يعقوب أنّ فاءها بدل من الثاء"[4].

[1] - ينظر: اللطائف في اللغة: 13.
[2] - ينظر: فصول في فقه اللغة: 327.
[3] - ينظر: المصدر نفسه: 327.
[4] - لسان العرب: مادة: (ف. ر. و) 15/ 152.

ثالثاً: التضاد:

هو دلالة اللفظ على معنيين متضادّين دلالة متساوية عند أهل تلك اللغة، وهو نوع من أنواع الاشتراك اللفظي؛ إذ يكون للفظة معنيان، ولكن يختلفان في المعنى اختلاف تضادّ، نحو: "المولى" تطلق للسيّد والعبد، و"القُرء" للطهر والحيض، و"الجون" للأبيض والأسود، و"الصارخ" للمستغيث والمغيث. و"جَلَل" تقال للأمر العظيم والهيّن[1]. قال الحارث بن وعلة الجرميّ[2]:

قَومي هم قتلوا أُمَيم أخي فإذا رَمَيْتُ يُصيبني سَهْمِي

فلئن عفوت لأَعْفُوَنّ جلَلًا ولئن سَطَوت لأوهِنَنَّ عَظْمي

ومنه كذلك لفظ "الصريم" للّيل والصبح، و"الخيلولة" للشكّ واليقين، و "النّد" للمِثل والضدّ، و"الزوج" للذكر والأنثى، و"القانع" لمن يسأل الناس، والذي لا يسأل، وكذا "الناهل" للعطشان والريّان[3].

وقد يحصل التضادّ بزيادة حرف، أو تغيير حركة، فذلك كما يراه الثعالبيّ يعدّ "من سنن العرب كقولهم: دَوِيَ: من الدَّاء وتَداوى: من الدواء. وأخْفَرَ: إذا أجارَ وخَفَرَ: إذا نقض العهد. وقَسَط: إذا جار وأقسَطَ: إذا عدل. واقْذى عينه: إذا ألقى فيها القذى وقذاها: إذا نزع عنها القذى. وما كان فرقه بحركة كما يقال: رجُلٌ لُعَنَةٌ: إذا كان كثير اللَّعن ولُعْنَة: إذا كان يُلْعَن وكذلك ضُحَكة وضُحْكة"[4].

من أسباب نشوء التضادّ:

أورد د. رمضان عبد التواب أسباب عديدة ممكنة لحدوث الأضداد في العربيّة، أكتفي بذكر بعض منها على النحو الآتي[5]:

1- أن يكون معنى اللفظة عامّا ثم يخصّص في لهجة قبيلة بمعنًى، ويخصّص بمعنى مناقض له في قبيلة أخرى، ومثاله: لفظة "الطَرَب" جاءت بمعنى الفرح، والحزن[6]، وقد قيل: إنّ المعنى ليس بذا أو ذاك، إنّما هو خفّة تلحق الإنسان وقت فرحه، وحزنه. فربّما كانت هذه الخفّة هي المعنى العامّ المشترك القديم، ثم استخدمها قوم لتدلّ على الفرح، في حين استخدمها آخرون لتدلّ

[1] - ينظر: الأضداد لابن الأنباريّ: 90.
[2] - البيت في ديوان الحماسة برقم: 46، ص: 36.
[3] - ينظر فقه اللغة للثعالبيّ: 364.
[4] - المصدر نفسه: 270.
[5] - ينظر فصول في فقه اللغة: 342-356.
[6] - ينظر المزهر:1/ 311.

على الحزن. ومثله لفظة "الذَّفَر" وهي بمعنى الريح الطيّبة، وكذا معناها الريح المنتنة. وأصل ذلك أنّ معنى اللفظة "حدّة الريح في الطيّب والنتن معًا"[1]، ومثله لفظة "السُّدفة" تأتي بمعنى الظلمة، وبمعنى الضوء، ولعلّها حالة بينهما أدت إلى إطلاق اللفظ عليهما معًا. فقد جاء في المزهر "والسُّدْفة في لغة تميم: الظلمة، والسُّدْفة في لغةِ قيس: الضوء. وبعضهم يجعلُ السُّدْفة اختلاطُ الضوء والظلمة معًا كوقت ما بين صلاة الفجر إلى الإسفار"[2].

2- جاءت بعض ألفاظ الأضداد تفاؤلا بها، أو لدفع الضرر من التشاؤم منها جيء بما يناقضها؛ حتى لا يجري ما يتشاءمون منه على ألسنتهم، ومنه: قولهم: "مفازة" وهي بمعنى النجاة والفوز، وهي كذلك الهلاك، واستخدامها في المعنى الثاني تفاؤلا. ففي كتاب الأضداد لابن الأنباريّ "إنّما سمِّي الملدوغ سليمًا على جهة التفاؤل بالسلامة، كما سمِّيت المهلكة مفازة على جهة التفاؤل لمن دخلها بالفوز"[3]. ومثله قولهم: "الناهل" للعطشان والريّان، وقد زعموا "أنّ الأصل فيه للريّ، وإنّما قيل للعطشان ناهل تفاؤلًا بالريّ"[4].

3- وقد يستعمل اللفظ بالضدّ لغرض السخرية، أو التهكّم، نحو مناداتهم "للعاقل" يا عاقل، وللجاهل كذلك يا عاقل تهكّمًا، يريدون "يا عاقل عند نفسك، قال عزَّ وجلَّ: "ثُمَّ صُبُّوا فَوْقَ رَأْسِهِ مِنْ عذابِ الحَمِيمِ. ذُقْ إنَّكَ أَنْتَ العَزِيْزُ الكَرِيْمُ"[5]، معناه عند نفسك، فأمّا عندنا فلست عزيزًا ولا كريمًا"[6].

4- وقد يؤتى بالضدّ دفعًا للحسد، أو العين، فيصفون الحَسَن قبيحًا لذلك، فقد يصفون المرأة الجميلة بـ "البلهاء"، فهو وصف يطلق على المرأة إذا "كانت ناقصة العقل، فاسدة الاختيار والتمييز، وامرأة بلهاء إذا كانت كاملة العقل، عفيفة صالحة، لا تعرف الشرَّ، ولا تعرف الرِّيَب"[7].

رأي إبراهيم أنيس:

يعدّ إبراهيم أنيس من أشهر اللغويّين المحدثين الذين عارضوا فكرة الاشتراك بنمطه المعروف، فهو ينكر الإسراف فيه، فالترادف الحقيقيّ عنده شرطه حصول "الاتحاد التامّ في

[1] - الأضداد لابن الأنباريّ: 88.
[2] - المزهر للسيوطيّ: 1/ 307.
[3] - الأضداد لابن الأنباريّ: 105.
[4] - نفسه: 116.
[5] - سورة الدخان: الآية: 48- 49.
[6] - الأضداد لابن الأنباريّ: 258.
[7] - نفسه: 333.

المعنى، والحكم في هذا مرجعه أولًا وأخيرًا إلى الاستعمال، لا إلى ما يتكهّنه أصحاب المعاجم"[1]. ومثل ذلك يقال في المشترك اللفظي؛ فلا يعدّ منه إلا ما كانت الصلة فيه بين المعنيين منقطعة، وكان تباين المعنى فيه واضحًا، فالمشترك اللفظيّ الحقيقيّ "إنّما يكون حين لا نلمح أي صلة بين المعنيين كأن يقال مثلًا إنّ الأرض هي الكرة الأرضيّة، وهي أيضًا الزكام، وكأن يقال لنا إنّ الخال هو أخو الأم، وهو الشامة في الوجه، وهو الأكمة الصغيرة. ومثل هذه الألفاظ التي اختلف فيها المعنى اختلافًا بيّنًا قليلة جدّا، بل نادرة، ولا تكاد تجاوز أصابع اليد عدًّا"[2]. أي: إنّ إبراهيم أنيس يشترط الاتحاد التام في الترادف، ويشترط التباين التامّ في المشترك، أمّا إذا اتضح أنّ أحد المعنيين هو الأصل والآخر فرع، أو مجاز له فلا يصحّ أن يقال إنّ فيها اشتراكًا[3]. وعلى ذلك يخلص أنّ الترادف في العربيّة أكثر من المشترك، فألفاظ المشترك لا تكاد تصل العشرات، في حين أنّ المترادفات تجاوزت المئات[4].

ويردّ إبراهيم أنيس ظاهرة الاشتراك اللغويّ إلى ولع العرب بموسيقا الألفاظ فقد شغلتهم عن ملاحظة الفروق بين دلالاتها، فقد صار العربيّ يضحّي بتلك الفروق في الدلالات في سبيل الحفاظ على نظم قوافيه، وتنسيق أسجاعه[5]. وهو يدلّل على ذلك بأنّ السيف حين كان له اسم واحد، وله خمسون وصفًا يدلّ كل منها على دلالة مختلفة؛ فالهنديّ يُصنع في بلاد الهند، وهو سيف حادّ رقيق فيه مرونة، واليمانيّ يصنع في اليمن، وهو مقوّس النصل وفيه نقوش، والمشرفيّ يصنع في دمشق، وفيه من الخصائص ما يميّزه عن سابقيه. ومع اختلاف تلك الدلالات فإنّ الشاعر الجاهليّ كعنترة مثلًا قد أهمل تلك الفروق في الدلالات واستخدمها جميعًا بمعنى السيف الجيّد، مراعيًا فقط نظامها الصوتيّ، أو ما تفرضه القافية.

قضايا الاشتراك في القرآن الكريم:

والمقصود بالاشتراك هو كلّ تلك القضايا مُجملة، سواء ما كان منها ترادفًا، أو مشتركًا لفظيًّا، أو تضادّا، فقد كان الدافع الأكبر لمن ردّ وجود ذلك الاشتراك هو كراهية أن تُنسب للقرآن؛ وهو ما دفع البعض إلى القول باستحالة وقوع الاشتراك عقلًا، فوقوعه مع خفاء القرائن يخلّ

[1] - دلالة الألفاظ: 213.
[2] - نفسه: 214.
[3] - ينظر: المصدر نفسه: 213.
[4] - ينظر: المصدر نفسه: 214.
[5] - ينظر: المصدر نفسه: 210-211.

بالفهم، وذلك ممّا ينزّه عنه القرآن الكريم، فالغاية من الوضع هي تحقيق التفاهم والتواصل بين الأفراد.

غير أنّ أكثر أهل الأصول يقرّون بجواز وقوع الاشتراك، فهو أن يقع من واضعين مختلفين بأن يضع أحدهما لفظا لمعنًى، ويضعه الآخر لمعنًى آخر، ثمّ يُتداول المعنيان بينهما[1]. ومع ذلك يبقى أنّ الأصل عندهم هو عدم الاشتراك، فإذا "اختُلف في لفظ ما، هل هو مشترك أم لا؟ فالأصل أنّه غير مشترك حتى يدلّ دليل على أنّه مشترك"[2]. وفي حال حصوله فلا بدّ "من وجود ما يبيّن الدلالة المُرادة من اللفظ المشترك"[3].

إنّ اختلاف الألفاظ بين لهجات العرب صحبته عوامل عديدة أدّت إلى تبادل تلك الألفاظ بين قبائلها نتيجة الاحتكاك، ومن ثمّ شيوعها، وهو الأمر الذي قد يصل إلى نسيان أصل وضعها، كلّ ذلك كان يثري اللغة الأم، فيشيع بين أبنائها الاستخدام الجديد للألفاظ ممّا فرضته حاجة الاستعمال، فتتداول في أحاديثهم عامّة، وفي أشعارهم خاصّة، ذلك الشعر الذي كان حلقة الوصل بين لهجات العرب، فبه يأنس الغريب، ويقرب البعيد، ولعلّ جعلهم مواسم الحجّ منتديات تُلقى فيها القصائد قد عزّز من رفد اللغة الأمّ بألفاظ لقيت استحسانًا وقبولًا ومزيد انتشار بين أبنائها؛ وقد كان بذلك لقريش النصيب الأوفر؛ فهي مقصد الشعراء والبلغاء. ثمّ جاء الإسلام بقرآن يجمع أبناء العربيّة بلسان قريش على ما توافر لهم جميعًا من لغة ثريّة معطاءة، فلا غضاضة في أن تُستعمل "الألفاظ الجديدة المُقتبسة إلى جانب الألفاظ القرشيّة الخالصة القديمة"[4].

وعليه؛ فقد كان من الطبيعيّ أن تأتي قضايا الاشتراك في القرآن الكريم؛ فالقول بوجودها لا ينافي الصواب، كيف لا وقد نزل بلسان قريش، وعلى نبيّها القرشيّ صلوات ربي وسلامه عليه.

فمّما جاء من تعدّد اللفظ للمعنى نفسه في القرآن الكريم قوله تعالى: "وأقسموا بالله جَهْد أيمانهم"[5]، وقوله تعالى: "يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر"[6]؛ إذ جاء الفعلان (أقسم، وحلف) بمعنى، ومثله ذُكر الفعلان: (جاء، وأتى)، قال تعالى: "ولَوْلا أَجَلٌ مسمًّى لَجاءَهُمُ

[1] - المزهر: 1/ 292.
[2] - القضايا الدلالية في كتاب العدّة في أصول الفقه: 44.
[3] - نفسه: 44،
[4] - دراسات في فقه اللغة: 299.
[5] - سورة النور: 53.
[6] - سورة التوبة: الآية: 74.

العذابُ"[1]، وقال تعالى: "وأتاهُمُ العذابُ مِنْ حَيْثُ لا يَشْـعُرُوْنَ"[2]، والفعلان: (بعث، وأرسـل)، قال تعالى: "إذْ بَعَثَ فِيْهِمْ رَسُـوْلًا مِنْ أنْفُسِـهِمْ"[3]، وقوله تعالى: "فَأَرْسَـلْنا فِيْهِمْ رَسُـوْلًا مِنْهُمْ"[4]. فكلّها أفعال وردت في القرآن، مع وضوح دلالة معانيها. وقد يكون استخدامها في القرآن جاء لفروق دقيقة روعيت للفت انتباه إلى عمق دلاليّ أوسع، لكنّ المعنى العامّ المتبادر إلى السامع هو نفسه، ولو سُئِل أحدهم عن معنى فعل منها في غير القرآن لأجاب مباشرة بمرادفه.

وكذلك الحال في تعدّد المعنى للفظة الواحدة فيما يُعرف بالمشـــترك اللفظيّ؛ فأكثر علماء الأصـــول يقرّون بجواز وقوعه[5]. ويبدو أنّ هناك اتفاقًا بين علماء الأصـــول على أنّه في حال وقوع الاشـتراك بين المعنى اللغويّ والمعنى الشـرعي فإنّ المعنى يُحمل على المعنى الشـرعيّ مالم تصـرفه قرينة إلى المعنى اللغويّ، ويمثّلون لذلك لفظة "الصلاة" الدالة على عبادة مخصوصة بالمعنى الشرعيّ، وقد جاءت بالمعنى اللغويّ وهو الدعاء[6]، في مثل قوله تعالى: "إنّ الله وملائكته يصـلّون على النبيّ يا أيُّها الذين آمنوا صلُّوا عليه وسلِّموا تسليمًا"[7].

وكذلك وردت ألفاظ في القرآن قيل إنّ فيها تضـــادّا، نحو قوله تعالى: "وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا"[8]؛ إذ قيل أنّ "وراءهم" في الآية بمعنى أمامهم،

فالْأَكْثَرُ "عَلَى أَنَّ مَعْنَى (وَرَاءَ) هُنَا أَمَامَ، يُعَضِّـــدُهُ قِرَاءَةُ ابْنِ عَبَّاسٍ وَابْنِ جُبَيْرٍ" وَكَانَ أَمَامَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ صَحِيحَةٍ غَصْبًا"[9].

وردّ بعض المفسّـــرين ذلك؛ فعندهم أنّ لفظة (وراء) روعي فيها معنى الزمان وَذَلِكَ أَنَّ الْحَدَث الْمُقَدَّمَ الْموجود هو الأَمَام، وَالَّذي يأْتي بَعْده هو الْوَرَاء وَهُوَ مَا خُلِّفَ"[10].

[1] - سورة العنكبوت: الآية: 53.
[2] - سورة النّحل: الآية: 26.
[3] - سورة آل عمران: الآية: 164.
[4] - سورة المؤمنون: الآية: 32.
[5] - ينظر: المزهر: 1/ 292.
[6] - ينظر القضايا الدلاليّة في كتاب العدّة في أصول الفقه: 44.
[7] - سورة الأحزاب: 56.
[8] - سورة الكهف: الآية: 79.
[9] - تفسير القرطبيّ: 11/ 34.
[10] - نفسه: 11/ 35.

ومنه قوله تعالى: "الذين يظنُّون أنّهم ملاقو ربّهم"[1]. وقوله تعالى: "الذين يظنُّون أنّهم ملاقو الله"[2]. ففي الآيتين جاءت "يظنّون" بمعنى يتيقَّنون، وليست بمعنى يشكّون؛ "فلم يذهب وهم عاقل إلى أنّ الله تعالى يمدح قومًا بالشكّ في لقائه"[3].

جاء في البحر المحيط لأبي حيّان "قَدْ يُوقَعُ الظَّنُّ مَوْقِعَ الْيَقِينِ فِي الْأُمُورِ الْمتحقِّقَةِ، لَكِنَّهُ لَا يُوقَعُ فِيمَا قَدْ خَرَجَ إِلَى الْحِسِّ. لَا تقولُ الْعَرَبُ فِي رَجُلٍ مَرْئِيٍّ حَاضِرٍ: أَظُنُّ هذَا إِنْسَانًا، وَإِنَّمَا نجد الِاستعمال فيما لَمْ يخرج إِلَى الْحِسِّ"[4].

ومنه أيضًا قوله تعالى: "إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلَاقٍ حِسَابِيَهْ"[5]، جاء في تفسير الطبريّ: "إن قال قائل لنا: كيف أخبر الله جلّ ثناؤه عمّن قد وصفه بالخشوع له بالطاعة أنّه ملاقيه، والظنّ: شكّ، والشاكّ في لقاء الله عندك كافر؟ قيل له: إنّ العرب قد تسمِّي اليقين ظنًّا، والشكّ ظنًّا، نظير تسميتهم الظلمة سُدْفَة، والضياء سُدْفَة، والمغيث صارخًا، والمستغيث صارخًا، وما أشبه ذلك من الأسماء التي تُسمِّي بها الشيء وضدّه"[6].

واللغة ذات طبيعة تأثّريّة، تسير في ركاب الناطقين بها حيثما ساروا، فتعلو وتسمو بسموهم، وترقّ وتلين بلينهم، وكذا تجمد بجمودهم، ومن الصعوبة بمكان تتبّع مراحل نموّها وأماكن رقيّها أو انحطاطها، وتبقى ألفاظها تتأثّر وتؤثّر رقيّا وانحطاطًا، ولغتنا العربيّة ليست بمعزل عن ذلك؛ إذ تزخر معاجمها بالكمّ الهائل من الألفاظ المحفوظة بمعانيها، في حين تلبس دلالاتها لبسًا يزدان بزينة المكان والزمان؛ وفي كلّ ذلك يحكمها الاستعمال، فما يدلّ على شيء جميل في زمان أو مكان، قد يدلّ على غيره في زمان أو مكان غيره، فتبقى الدلالات تتعاور الألفاظ ضيقًا، أو اتساعًا أو ارتقاءً أو انحطاطًا، مع احتفاظها بمعناها المعجميّ، رغم تغيّر الزمان والمكان. ولن يقف ذاك التغيّر الدلاليّ عند حدّ، فلكلّ قوم أساليبهم المختلفة في التعبير والإشارة والإيجاز وما إلى ذلك؛ ممّا يتبعه تغيّر في الاستعمال، والاستعمال وحده هو العُرف اللغويّ السائد في لغة الخطاب؛ فتتصاع الدلالة دومًا لتواكب ذلك الاستعمال الجديد.

---

[1] - سورة البقرة: الآية: 46.
[2] - سورة البقرة: الآية: 249.
[3] - دراسات لغويّة في أمّهات كتب اللغة: 228.
[4] - البحر المحيط: 1/ 300.
[5] - سورة الحاقّة: 20.
[6] - تفسير الطبريّ: 1/ 623.

والملاحِظ لاختلاف ألفاظ العرب اليوم في أحاديثهم اليومية فيما يسمّى باللغة الدارجة، سيلاحظ مباشرة اتفاق المعاني المعجميّة في كل قُطر منهم، واختلافهم قد يحصـــل باختلاف الاســـتعمال الدلاليّ، إذا استثنينا الدخيل لتلك اللهجات من لغات أخرى أجنبيّة. ولا أدلّ على ذلك من اختلاف التسميات للشيء نفســـه في لهجات العرب اليوم، ومثاله: لفظة "صَـــرْف"، فهو في اليمن يُطلق على قليل المال وأجزاؤه المتبقية، وفي مصـــــر" فكّة"، وفي لبنان "فرافير، وفي ليبيا "رقاق، وفي العراق "خُردة"، وفي ســـوريا والأردن "فراطة". ومثاله كذلك لفظة "الحبحب" في اليمن، والمعروف في مصر بـ"البطيخ"، و"الرَّقّي" في العراق، و"الدِّلاح" في ليبيا[1].

وفي لهجتنا الدارجة في اليمن قد نستخدم أفعالًا لا نقصد بها معناها المباشر والمعروف، ولكنا نوظّفها توظيفًا آخر، مع الاحتفاظ بمعناه الأصـــليّ. والســـياق هو الذي يوضّـــح المعنى التداوليّ المُراد. فمثلًا يُقال: (جلســـنا واقفين طول الوقت)؛ إذ اســـتُخدم الفعل (جلس) بمعنى (بقي) أي: (بقينا طول الوقت واقفين)، ولا يشـــكّ المتحدّث أو الســـامع في معنى (جلس) المعجميّ، لكنّهم يتفقون معًا على المعنى المستعمل. صحيح أنّ السياق يحتّم معنى "بقينا"، ولكنّ السياق نفسه توافقيّ في لغة الخطاب. وتبقى لفظة (جلس) بمعناها المعجميّ المعروف، ولا يمكن بحال –في وقتنا الراهن– اعتبارها مرادفة للفظة (بقي). ومثل هذا الاستعمال كثير في لهجتنا، ومثله:

– (رُحْتْ أَفكِّر كيف أسـوي) فالفعل (رحت) لا علاقة له بالرواح البتة، وإنّما هو يمكن وصـفه بالفعل المفتاحيّ؛ إذ يهيئ لما بعده، فكأنّه بمعنى شرعت أو بدأت.

– (لمّا حَسّـــيْتْ بالتعب قمت أرقد)، والتناقض واضـــح بين الفعلين (قمت) و(أرقد) لولا التوافق في الاستعمال. فالفعل "قمت" يشير إلى الفعل أو الحدث، وكأنك تقول: فعلت كذا، ولا يقُصـد منه القيام المعروف.

– (أمس نمت كثيرًا لأننا ما خَزَّنْتْ)، ولعلّ الفعل (خزّن) أكثر التصـاقًا دلاليّا باليمنيّين ممّا عداهم، فلا علاقة له بأمر تخزين بضـاعة أو ما شـابه، إنما هو ما يمكن وصـفه بتخصـيص الدلالة؛ إذ اسـتُخدم الفعل ليدلّ على معنى بعينه لا غيره وهو مضـــغ القات وبقاؤه مدة في الفم؛ إذ تنصـــرف الدلالة في اليمن مباشرة إلى ذلك حال سماع اللفظة، فلا يُقال لمضغ شيء آخر، أو وضع شيء آخر في الفم بأنّه تخزين.

[1] - ينظر: فصول في فقه اللغة: 317.

والأمثلة على ذلك كثيرة ليس هنا مجال سردها، وإنما قصدت من إشارتي تلك إلى أنّ الاستعمال قديمًا وحديثًا عليه مدار الألفاظ ودلالاتها، وجدليّة البحث عن أصـل ذلك الثراء اللغويّ في لغتنا أمر مضـنٍ وشاقّ ولا يؤتي أكله، فألفاظ الاشتراك في لغتنا ليست بعدّ أصابع اليد، حتى يمكن الإحاطة بها، وإنّما هي ظاهرة لغويّة بعيدة الأثر، عميقة الجذور. لذلك فإنّ الغوص في دلالاتها وما ترمي به من ظلال لهو جدير بالدراسة؛ لأنّ حقولها متعدّدة، وأبعادها مترامية الأطراف.

نتائج البحث:

كانت أبرز نتائج البحث على النحو الآتي:

ترتكز أيّ لغة على عاملي التأثير والتأثّر؛ سواء كان ذلك في بيئتها، أو كان بتفاعلها مع بيئات أخرى؛ فينشأ عن ذلك عديد الألفاظ، ووفرة المعاني.

لا يمكن بحال معرفة الأسـباب المباشـرة لنشـأة تعدّد الألفاظ، أو تعدّد المعاني فيما يُعرف بالترادف والاشتراك، فكلّ طرح أو رؤية لتفسيرها تظلّ احتمالًا لا يرقى إلى درجة اليقين.

يظلّ الاستعمال قديمًا وحديثًا هو أكثر عامل يثري تشكّل الألفاظ وتغيّر معانيها، أو يهملها؛ فتضعف وتُنسى لتبقى محصورة في جذور المعاجم.

المراجع:

الأضداد، محمّد بن القاسم ابن الأنباريّ، ت: 398هـ، تح: محمّد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصريّة، بيروت، 1407هـ - 1987م.

البحر المحيط في التفسير، أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي، ت: 745هـ، تح: صدقي محمد جميل، دار الفكر، بيروت.1420هـ.

جامع البيان في تأويل القرآن، المعروف بتفسير الطبريّ، محمّد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآمليّ، أبي جعفر الطبريّ، ت: 310هـ. تح: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط 1: 1420 هـ - 2000 م.

الجامع لأحكام القرآن، المعروف بتفسير القرطبيّ، أبي عبد الله محمّد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاريّ الخزرجيّ شمس الدين القرطبيّ ت: 671هـ، تح: أحمد البردونيّ، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصريّة - القاهرة، ط 2: 1384هـ - 1964م.

دراسات في فقه اللغة، صبحي إبراهيم الصالح، ت: 1407هـ، دار العلم للملايين، ط 1: 1379هـ - 1960م.

دراسات لغويّة في أمّهات كتب اللغة، إبراهيم محمد أبو سكين.

السياق وأثره في المعنى، د. المهدي إبراهيم الغويل، دار الكتب الوطنيّة، ليبيا، 2011م.

دلالة الألفاظ، إبراهيم أنيس، مكتبة الأنجلو المصريّة، الطبعة الثالثة، 1976م.

ديوان الحطيئة، جرول بن أوس، اعتنى به وشرحه حمدو طمّاس، دار المعرفة، بيروت، ط 2، 1426هـ - 2005م.

ديوان الحماسة، أبو تمّام، حبيب بن أوس الطائيّ، ت: 231هـ، شرح وتعليق: أحمد حسن بَسَج، دار الكتب العلميّة، بيروت، ط 1، 1418هـ - 1998م.

الصاحبيّ في فقه اللغة العربيّة ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكريّا القزوينيّ الرازيّ، أبو الحسين ت: 395هـ، محمد علي بيضون. ط 1: 1418هـ-1997م.

الفروق في اللغة، أبو هلال العسكريّ ت: 395هـ، تح: جمال عبد الغني مدغمش، مؤسسة الرسالة، ط 1، بيروت، 1422هـ - 2002م.

فصول في فقه اللغة، رمضان عبد التوّاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، الطبعة السادسة، 1420هـ – 1999م.

فقه اللغة وسرّ العربية، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي (المتوفى: 429هـ، تح: عبد الرزاق المهديّ، إحياء التراث العربيّ، ط1: 1422هـ – 2002م.

القضايا الدلاليّة في كتاب العدّة في أصول الفقه، القاضي أبو يعلى الحنبليّ، رسالة ماجستير لعبد العزيز تواتي، كليّة الآداب واللغات، جامعة محمّد خيضر بسكرة، الجزائر.

القلب والإبدال، ابن السكّيت، أبو يوسف يعقوب بن إسحاق، ت: 244هـ.

الكتاب، عمرو بن عثمان بن قنبر الحارثيّ بالولاء، أبو بشر، الملقّب بسيبويه، ت: 180هـ. تح: عبد السلام محمّد هارون مكتبة الخانجيّ، القاهرة، ط 3: 1408 هـ – 1988م.

لسان العرب، محمّد بن مكرّم بن علي، أبو الفضل، جمال الدين بن منظور الأنصاريّ الرويفعيّ الإفريقيّ، ت: 711هـ ، دار صادر – بيروت، ط 3: 1414 هـ.

اللطائف في اللغة، معجم أسماء الأشياء، أحمد بن مصطفى اللَّبَابِيديّ الدمشقيّ، ت: 1318هـ، دار الفضيلة، القاهرة.

اللغة، جوزيف فندريس ت: 1380هـ، تعريب: عبد الحميد الدواخليّ، محمّد القصّاص، مكتبة الأنجلو المصريّة، 1950 م.

مختار الصحاح، زين الدين أبو عبد الله محمّد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفيّ الرازيّ ت: 666هـ، تح: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصريّة – الدار النموذجيّة، بيروت – صيدا، ط 5: 1420هـ / 1999م.

المزهر في علوم اللغة وأنواعها، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي، ت: 911هـ، تح: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلميّة – بيروت، ط 1: 1418هـ – 1998م.